الفصل الثالث

الطفل المصري

قبل أن نخوض في وصف الطفل المصري وقبل أن نفصل نتيجة دراساتنا ومشاهداتنا يجب أن نوضح نقطة هامة في الموضوع وهي عنوان هذا الفصل أو الطفل المصري

لا نقصد منها أولا الصبي الذي ينتهي الى مدرسة ابتدائية أميرية أو اهلية ، فهذا النوع من الاطفال اقلية ضئيلة جدا لا يعتد بها ولا يحسب لها حساب بجانب الألوف ومئات الألوف الذين يملأون شوارع المدن الكبيرة ، فاطفال المدارس من هذا الصنف طبقة محظوظة على العموم ، تأكل وتشرب ما يكاد يكفيها ويغذيها ، وتذهب الى المدارس حيث تتعلم ما تتعلمه ، وان كانت لا تتعلم شيئا ذا قيمة ولكنها على أي حال تجد العناية الكافية من الامراض ومن التسكع في الشوارع والطرقات ، ولذلك فقد اسقطنا هذه الطبقة من حسابنا في هذا الفصل وعندما نذكر الطفل المصري أو الصبي المصري أو أي اصطلاح يؤدي الى هذا المعنى لا نقصد طلبة المدارس الابتدائية أو الثانوية الأميرية أو الأهلية على الاطلاق .

ثم نحن لا نقصد بالطفل المصري ابناء الفلاحين المقيمين في القرى وذلك لسبب بسيط وهو ان هذه دراسة عملت بين ظهراني اطفال الشعب في القاهرة دون سواها فهي هذا الفصل بالذات لا نقصد اطفال القرى .

نعم سوف نعمم هذا الاصطلاح ، وسوف نجعله يشمل اطفال المصريين جميعا وسوف يكون هذا في بعض الفصول التالية ، اما في هذا الفصل فسيكون كلامنا قاصرا على اطفال الشعب الذين يملأون شوارع القاهرة وطرقاتها دون غيرهم هؤلاء الاطفال الذين يطلق عليهم بعض الناس لفظ

(المتشردين) أو (الاحداث) أو (المجرمين) أو (اطفال الشوارع) الى آخر هذه التسميات .

بعد هذا الايضاح الضروري نعود الى أبناء الشعب وال ما وجدنا فيهم من خصائص بدنية او نفسية او اخلاقية .

واول ما يشاهد في ابناء الشعب الامراض الظاهرة الواضحة التي تكاد تكون مكتوبة على الجبين والتي لا يحتاج الانسان معها الى أن يكون طبيبا حتى يفهمها أو يدل عليها لانها واضحة لكل ذي عينين ، فالامراض الجلدية والقراع وامراض العيون واصفرار الوجه ونحافة البدن كل هذه اشياء يكاد يلمسها كل فرد دون حاجة الى استشارة طبيب أو الى الكشف الطبي .

والقذارة هي الطابع الخاص لهذه الطبقة قذارة الملابس والابدان وبخاصة قذارة الوجه والعينين حتى ليكاد يحس الانسان انها مقصودة لذاتها مرغوب فيها عندهم كأنهم يتعمدونها ويتجشمون الصعاب للظهور بها ؛ وقد يكون السبب في القذارة الفقر أو الجهل أو الاثنين جميعا أو قد يكون سببا آخر لا ندريه ؛ وعلى كل حال فان قذارة هؤلاء الصبيان تقزز النفس ويقشعر لها البدن ؛ فلم نكن نخشى منهم شيئا قدرما نخشاها ونخاف منها وبخاصة في مواسم الأمراض ، وقد بذلنا جهدا كبيرا في كبت هذا الشعور الذي كان يتملك نفوسنا ويعمل دائما وبشدة على قطع صلاتنا بهم ومباعدة ما بيننا وبينهم ، ومن شدة ارهاف الحس عندنا كان الكاتب يهرش جسمه باستمرار لشعوره المستديم بحركات تشبه حركات الحشرات كالقمل والبراغيث والبق وما اليها ، وفي أغلب الاحيان لم يكن هناك شيء من هذا وانما الاستعداد النفسي والعلم اليقين بتوافر هذه الحشرات في البيئة كانا السبب المباشر في هذا الشعور بالحاجة الى هرش البدن .

لا نعلم على التحقيق سواء أكان فقر هذه الطبقات علة أم نتيجة سببا أم مسببا فبعض الناس يزعم أن العلة والفقر هي الجهل والمرض والعجز عن

العمل النافع المنتج . وبعضهم يظن أن الفقر هو الاصل وهذه الرزايا هي النتيجة المباشرة له ، وقد يكون الشيء الواحد سببا ونتيجة في نفس الوقت : فالفقر يتيح المرض وهذا بدوره يشيع الفقر بين الناس ، وهكذا تدور الحلقة من شر الى شر لا نهاية له .

ومما ليس فيه شك على ما نظن أن الفقر هو داء يلازم طبقات اطفال الشعب ملازمة الظل بحيث يكاد يكون مرسوما على جباههم تراه في لباسهم وفي مأكلهم وفي تصرفاتهم ونحسه في خوالج نفوسهم ، وتستبينه في دوافعهم للعمل والسكون ، فحاجاتهم الشديدة لبعض النقود يصرفونها لتحكم لحد كبير فيما يأتون من اعمال وما يقترفون من أوزار ، وتدفعهم في بعض الاحيان الى المخاطرة بالشيء الكثير للحصول على مليمات قليلة .

وعلى كل حال لم تكن الجماعة في حاجة الى تفكير طويل وتدبير محكم واقامة لحفلات العدس وغير العدس والقاء الخطب والتنظيم الدقيق لشئونها وتحضير ابواب الدراسة لتخرج من هذا كله بأن اطفال الشعب مرضى وقذرون وفقراء ، فمعرفة هذه الحقائق لا تتطلب كل هذه الجهود اذ هي اشياء ظاهرة واضحة لكل عابر سبيل دون دراسة أو ما يشبه الدراسة .

وما ارادت الجماعة دراسته في الواقع هو نفسية اطفال الشعب ، اخلاقهم وميولهم وتفكيرهم والدوافع النفسية لتصرفاتهم ، كيف يتصرفون في الحالات المختلفة وماذا يتصرفون هكذا وعلى هذا الوضع دون سواه ، وهل هذه التصرفات مما يؤدي بهم الى تكوين أمة عندما يصبحون رجالا متماسكة قوية تعرف ما تريد وتستطيع أن تصل الى ما تريد ، هل يمكن أن يجسموا رأيهم في المستقبل على أمر ويتعاونوا على بلوغ الغاية التي ينشدونها ، وهل يتوافر عند افراد أمة الغد الاستعداد للقيام بما يجب على كل منهم ، وهل سيصبح لفكرة الأمة والجماعة معنى عند هؤلاء الافراد ، هل يحسون لهذا وجودا ويعملون على رضائها ويخدمونها بكل ما يملكون من قوة ونشاط .

ربما نعرف حالة بلادنا الراهنة ، ربما يخيل الينا اننا نعرف نقائص الجيل الحاضر ومزاياه ، ما يصلح له هذا الجيل من المصريين وما لا يصلح ما يستطيع أن يعمل وما يعجز عن عمله ربما نظن أننا نعرف هذا ولكننا على التحقيق نجهل نفسية الجيل القادم ونجهل مزاياه وعيوبه الى حد كبير ولا نستطيع أن نتكهن بحالة الأمة النفسية والاجتماعية بعد انقضاء هذا الجيل وبعد أن يستلم اطفال اليوم مقاليد الأمور في البلد يصرفونها طبقا لمواهبهم وتدبيرهم . كنا نريد أن نستقرىء من حياتهم الراهنة الدلائل والاتجاهات الى حياتهم المقبلة وهل سيكونون جماعة لها خطرها وقدرها ، أم يعجزون دون هذا الغرض فتعم الفوضى وينتشر الفساد وتتفكك الروابط الاجتماعية وتزلق أقدام البلاد شيئا فشيئا وتتدهور الى الحضيض .

والادب المصري خلو من هذه الدراسة فلا يوجد على ما نظن القصص التي تتناول حياة أطفالنا سواء أكانوا من ابناء الشعب ، وكل ما هنالك على ما نظن انما هو الأيام لطه حسين وهذا ترجمة حياة طفل بذاته قد يشبه الأطفال وقد لا يشبههم ، وأما القصة التي تعالج أطفال الشعب عامة والتي تفتح أمامنا المجال لمعرفتهم ومعرفة حياتهم من يوم الى يوم وتكشف امامنا تصرفاتهم والدوافع لهذه التصرفات فغير موجودة على ما نظن ، كنا نحب أن نقرأ امثال (دافيد كبرفيلد) (وسوريل وولده) (ورب المنزل) وأمثال هذه كثير مما يفتح أذهان الناس لمشاكل الأطفال ويفتح المسالك أمام المصلحين حتى يصلحوا الحالات القائمة مما لا يستقيم للحياة الاجتماعية . ويذكر كاتب هذه السطور أنه حاول أن يغري بعض كتاب القصص عندنا بهذا الموضوع ففشل فشلا ذريعا أما لعجزه عن الاغراء او لان الموضوع لا يلقى هوى في نفوس القصصيين النابهين ، فعسى أن يكون في هذا الكتاب مادة تصلح أساساً لقصص تخدم هذه الطائفة التي يتوقف عليها مستقبل الأمة

درسنا نفسية ابناء الشعب على قدر ما تسمح به ثقافتنا المحدودة وبقدر ما تسمح به معارفنا من قواعد علم النفس والتربية وقواعد الاجتماع ، ويخيل الينا أننا خرجنا ببعض المعلومات والحقائق لا نزعم انها فصل الخطاب في الموضوع وانما نظن انها قد تلقي ضوءاً عليه ينير الطريق ويعين من هم اقدر منا في هذا الباب على تواجهه والكشف عن حقائق الامور .

وقبل أن نفصل نفسية الطفل المصري ونبين بعض نواحيها التي تكشفت لنا نرجو أن يلاحظ القارئ أن الاتجاهات والميول والعناصر النفسية والاجتماعية المختلفة متداخلة في بعضها ، يؤثر بعضها في البعض الآخر بحيث لا يمكن فصلها كل الفصل وحصرها في حدودها كل الحصر وبعد فالنفس الانسانية وحدة تؤثر فيها كل العوامل مجتمعة ومنفصلة والعوامل التي تؤثر في بعضها في نفس الوقت حتى يصبح من التعسف أن يطالب انسان بالتزام الظاهرة الواحدة والتحدث فيها وحدها دون المساس بالظواهر الأخرى .

والحياة الاجتماعية انما هي حياة مشتركة يساهم فيها أفراد مختلفون تتباين مذاهبهم وامزجتهم و ... ظاهرة نفسية في الفرد لا بد وان يكون لها رد فعل في الحياة الاجتماعية يختلف شدة وضعفاً تبعاً لمكانة الفرد في الجماعة أو تبعاً لشيوع هذه الظاهرة فيها ، فحب الذات في الافراد مثلا من العوامل التي تضعف الروابط الاجتماعية وتنثر عقد الأمة أو الجماعة مهما كانت حالة الأفراد فيها من القوة ومضاء العزيمة ، من شأن حب الذات بالاضافة الى بعض العوامل الأخري أن يجعل الجماعة أو الأمة مفككة ضعيفة لا حول لها ولا طول كجماعة .

فعندما نتحدث عن عناصر الشخصية في الافراد لا بد وأن يجر الحديث سواء اردنا أم لم نرد إلى نوع الحياة الاجتماعية بينهم وإلى نوع الامة التي تتكون منهم ، وعلى هذا يخيل الينا اننا سنعجز إذا اردنا أن نصف نفسيات

obeikandi.com

اطفال الشعب دون أن تمس الحياة الأجتماعية عندهم الآن وفى المستقبل . وبعبارة اخرى نظن اننا سنضطر أن ننظر إلى هؤلاء الاطفال كطائفة أو كجماعة لها خصائصها ومميزاتها الآن وانه قد يستدل من الخصائص والمميزات الحالية على شكل الجماعة التي سينتظمون فيها بعد عشرين سنة مثلا ، ونظن انه لا بأس علينا من هذا لاننا معنيون بالاصلاح ، والاصلاح لا يمكن الا أن ينتهي إلى تغيير وضع الحياة الاجتماعية بحيث تصبح ملائمة لتنشئة افراد من نوع افضل واكفاء من افراد الجيل الحالى .

وأول شيء لا حظته الجماعة على الطفل المصرى انه لا يستطيع أن يثابر على عمل أو نشاط لا تكون له فوائده المعجلة ، فعندما تقترح على جماعة منهم عملا أو مشروعا تجد الاقبال عليه شديدا والحماس له ظاهرا بحيث يخيل اليك أن هذا المشروع لاقى هوى دفينا فى نفوس الافراد كلهم . واغلب الظن انه قد لاقى هذا الهوى وهذه الرغبة الملحة التي تدفع الناس إلى النشاط مما يجعله يستمر إلى أن تؤتى ثمراته ، ويقبل الصبيان بحماس اذن ويبدأون في عملهم ثم تتلاشى فيهم الرغبة بمثل السرعة التى نبتت بها وينصرفون واحدا واحدا عن هذا النشاط إلى شيء غيره ، وهكذا من شيء إلى شيء ومن نشاط الى نشاط حتى لا يكادوا يحسنون شيئا من الاشياء .

ولا نقول أن عدم المثابرة ناتج من انعدام الرغبة أو ذبولها شيئا فشيئا إلى أن تصبح غير كافية لدفع النشاط ، فالرغبة ثارت أولا للغاية من النشاط وليس النشاط ذاته ، والغاية موجودة ولا تزال مغرية محببة إلى النفس ، والرغبة فيها موجودة لم يعتورها وهن أو ضعف ، وانما ما نقص واعتوره الضعف والوهن الاستعداد لحمل النفس على عمل ما لا تريد فى سبيل غاية بعيدة تريدها هو هذا العزم الذى يحمل الفرد على اغفال الامر الواقع فى سبيل الثمرة البعيدة ، هو تضحية الحاضر للمستقبل لا عن تفكير سابق وتدبير مقصود وانما عن كراهة للرجوع عن نية انتواها الفرد دون سبب ظاهر ،

لا تبرمه بالنشاط الراهن ودون أن تستجد عوامل لم يعمل حسابها من شأنها أن تجعل الفرد ينصرف عن الغاية التي يسعى اليها .

يريد الطفل أن يتعلم الموسيقى ولعبة الشطرنج والقراءة والكتابة ولغة اجنبية وجمع الصور وتوفير النقود كل هذه اغراض محببة يهواها الطفل ويحبها ويرغب في العمل للوصول اليها ويقبل على النشاط الذي يؤدي اليها . ثم يشرع في عملها ويسير فيه وإذا به تفتر فيه العزيمة وتضعف ، ويصبح النشاط متعبا فثقيلا فبغيضا بحيث يفضي التبرم به إلى الأعضاء عن الغاية أو التقاضي عنها ، لا ننكر أن من طبيعة الحياة في هذه السن العجلة والتقلب . ومن طبيعة رغبات الاطفال انها وقتية ولكننا نشعر أن حياة الكبار عندنا وفي جيلنا الحاضر تشبه في هذا حياة هؤلاء الاطفال ، وقد لا نكون مخطئين كثيرا عندما نزعم أن سن هؤلاء الأطفال لا تبرر هذا النقص في المثابرة . وبعد فالصبي في سن الخامسة عشرة مثلا لا يكون بهذا الوضع من الأستعداد لترك غاياته واغراضه بهذه السهولة وهذا اليسر . نظن انه في هذه السن يستطيع أن يتوجه إلى غاية قد تكون بعيدة نوعا ما يثابر على النشاط إلى أن يصل إلى الغاية .

وقد يكون تأخر الصناعات في بلادنا مرجعه إلى نقص في هذه الخاصية النفسية أي إلى عدم المثابرة ، فالاتقان الضروري للصناعة والذي لا تقوم صناعة من دونه مرجعه إلى المثابرة وإلى مقدرة الفرد على توجيه نفسه إلى الغاية دون نظر إلى الطريق الذي يجب أن يسلكها لهذه الغاية ، وقد يكون النشاط الذي يؤدي اليها ثقيلا بغيضا لا يحب الأنسان أن يمارسه إذا ما ترك لنفسه ، ولكنه لا يترك نفسه لنفسه وانما يجعل الغرض النهائي الحكم الفصل في ميوله ورغباته الوقتية ويضحي بهذه جميعا في سبيل ذلك ثم يكب على العمل ويلازمه ويلازمه يوما فيوما وشهرا فشهرا ولا يكف عنه بحال قبل أن يصل إلى غرضه بتمامه .

وعلى كل حال وجدنا أن الأطفال عندما لا يثابرون ، وفي رأينا أن يمكن تخطئتهم أن نرجع هذا النقص إلى اخلاقهم وإلى تربيتهم وليس لسنهم أن النقص عقلي أو بدني فيهم، وأن هذا النقص من شأنه أن ينتج لنا جيلا أقل ما يقال فيه أنه قد يعجز عن اتقان شيء من الأشياء وسوف يكتفي من الامور بأن يفهم فيها سطحيا ، وسوف تعوزه الدقة والأتقان في اعماله .

ونظن أن هذه الظاهرة الاخلاقية الرديئة طارئة على الحياة المصرية اذ ليس من شك في أن جدودنا المصريين الاقدمين لم تكن تعوزهم المثابرة والتزام ما كانوا يعملون إلى أن يصلوا إلى الغاية المنشودة ، فآثارهم تدل فيما تدل عليه بخلاف الثقافة والمدنية والفن انهم كانوا قوما لا ينكصون عن عمل اضطلعوا به حتى يتموه ، فكانوا يضعون الخطط لاقامة بناء مثلا يستغرق عشرات السنين ، وقد يموتون قبل تمامه في كثير من الاحيان ، ومع ذلك يأتي من بعدهم ويستأنفون العمل حيث ترك الجيل السابق ، ويوالونه ويلتزمون النشاط فيه إلى أن يبلغوا الغاية .

فمتى وكيف فقدنا هذه الخاصية يا ترى أو كيف ومتى ضعفت فينا على الأقل . ما هي العوامل التي من شأنها أن تضعف الخلق من هذه الناحية وهل هذه العوامل اجتماعية ، وهل هي مما يمكن التغلب عليها حتى نسترد ما نظن أننا كنا نملكه في هذا الباب .

بالطبع لا يفهم الصبي المصري قيمة الوقت ، ولكننا نظلمه إن تطلبنا منه أن يفهم هذا في حالته الراهنة وفي الجو الذي يعيش فيه ففهم قيمة الوقت يتطلب في الفرد معرفة واسعة بالحياة وثقافة اقتصادية خاصة ، واغراضا معينة للحياة والعيش يسعى اليها الفرد ويعمل ويشتغل بسرعة وفي حرص شديد على الوقت حتى يصل الى ما يريده .

وتقدير قيمة الوقت هو في الواقع نتيجة لفهم معنى الواجب فهما عميقا وفي حرص شديد على تأدية هذا الواجب والعجلة في تأديته حتى لا يضيع

obeikandi.com

الوقت فيصبح من المتعذر عليه آداؤه ، فتأجيل العمل من ساعة الى أخرى ومن يوم الى آخر دليل على عدم تقدير الفرد لقيمة الوقت التقدير الصحيح وبخاصة متى كان التأجيل ناشئا عن ميل للتردد فى البدء فيه أو عن زحزحته الى وقت مستقبل لمجرد الشعور بعدم الميل للعمل أو لمجرد الكسل والركون الى الراحة أو الى تسلية يؤثرها الفرد على العمل والواجب ، كل هذه واشباهها دليل على أن الفرد لا يفهم قيمة الوقت وقيمة الحياة واستغلالها فيما يعود عليه وعلى من ينتمون اليه بخير النتائج .

والوقت عند الصبي المصرى شيء لا قيمة له ، فهو اذا ترك لنفسه ولما يهوى مضى الوقت أو ضيعه والسلام ان لم يكن فى التسكع فى الشوارع ففي معاكسة الناس والبحث عن المثيرات بأي شكل ، والوقت الذى يضيع على هذا الوضع يفسد الحياة من اولها الى آخرها وينتج اثاره السيئة فى حياتهم كأفراد وفى حياة الجماعة .

والعمل شيء بغيض عند هؤلاء الصبيان فليس له عندهم معنى الا انه خلق لتنغيص حياتهم وزيادة مشاكلها واعبائها ، وعلى هذا فهم يكرهونه وينفرون منه ويودون لو تيسر لهم العيش من دونه فيهربون منه ولا يقبلون عليه الا خوفا من عقوبة تنزل بهم وخوفا من اهليهم ورؤسائهم ومن يعمل باستمرار منهم لا يعمل برغبة عنده أو لذة يستخلصها من العمل أو لانه يسر اذ يرى انتاجه ونتيجة عمله من الدقة والكمال ، أو لان عنده ملكة الخلق والابداع ويريد ان يشبع هذه النوازع فى نفسه .

ولسنا فى حاجة إلى الزعم بأن العمل والانتاج هما أساس الحياة الاقتصادية لأية جماعة أو أمة لا بل هما أساس الحياة من أولها إلى آخرها اذا أخذنا برأي دعاة التفسير الاقتصادي للتاريخ أما إذا كنا من الذين يعتقدون بوحدة الحياة وأن العامل النفسانى والعامل الاقتصادي هما جميعا عنصرا الحياة يرتبط أحدهما بالآخر ويؤثر أحدهما فى الآخر كل التأثير فنحن أيضاً

تعرف قدر العمل في الحياة في مجموعها ، وأية أمة يهرب أفرادها من العمل وينظرون إليه على أنه شر لابد منه ويحاولون التخلص منه بجميع الوسائل لا يمكن أن تكون حياة يركن إليها ولا يمكن المفكرين أن يتركوها لشأنها تسير كيفما اتفق لها أن تسير ، لا بل نظن أنه يجب على علماء النفس والمربين أن يعالجوا هذه الظاهرة في صبيان الأمة ، ويوالوا علاجها إلى أن تمحي هذه الظاهرة وتتكون عند الصبيان ثقافة جديدة تضع العمل وما يتصل بالعمل في الموضع اللائق به ، يجب أن ينتهي بصبياننا المطاف حتى يصبحوا ممن يقدسون العمل ويرون ضرورته أولا واللذة التي تصحبه ثانيا وحتى يصبحوا دؤبين على العمل مغرمين به مولعين بهذا الضرب من النشاط .

لا ننكر أنه قد يكون منشأ هذه العلة حياة الطفل في عائلته أو حياته في البيئة وبعبارة أخرى حالته النفسية ، أو قد تكون العلة في هذا حاجته إلى الغذاء وعجزه الجسماني أو ضعفه العام وقد تكون ناشئة من الأمراض المتنوعة التي تعمل عملها في بدنه وتقضي على كفايته للعمل ، فقد تكون إحدى هذه العلل السبب فيما نرى كراهية الصبيان للعمل وقد تكون هذه العلل مجتمعة هي السبب المباشر ، كل يعمل من ناحية حتى أصبح الصبي في هذه الحياة من النفور من العمل ، وعلى كل حال نظن أنه من واجبنا أن نوالي هذه الحالة بجهودنا حتى نقضي عليها أو نخفف وقعها على أقل تقدير ، وبغير هذا نظن أنه ليس في وسعنا أن نطمئن لمستقبل أمتنا .

وهنالك ظاهرة أخرى في حياة الصبي المصري وهي انطواؤه على نفسه وشعوره بهذه النفس دون سواها والعمل على إرضائها ولو كان في هذا ضرر شديد يحيق بغيره حتى وإن لم تكن الفائدة التي تعود عليه شخصيا كبيرة أو ذات أثر مستديم في حياته ، فهو مستعد أن يضحي بالعدد الكبير من الصبيان الآخرين ، يضحي براحتهم ولذتهم لا بل يعرضهم للسخط والعقوبة وضياع الصالح إذا ظن أو خيل إليه أن هذا قد يعود عليه ببعض الفوائد

obeikandi.com

القليلة أو الكثيرة. وبعبارة أخرى أن الصبي المصري معنى بنفسه يحب نفسه وليس له هم في الحياة كلها ألا أن يدفع عنها الضرر ويجلب لها الخير بكل الطرق الممكنة بغض النظر عما يحيق بغيره ، فقد يسرق الصبي كرة تلعب بها الجماعة ، ويلعب هو معهم فتسليهم وتسليه ويستخلصون منها اللذة والمرح وهو بالطبع يشاركهم لذتهم ومرحهم ، ومع ذلك يسرقها ويحتجزها في بيته ويحرم نفسه واخوانه هذه اللذة ، مجرد رغبته في أن تكون الكرة ملكا له وحده دون غيره ، وقد يكون أنه سرقها لأنه يريد أن يبيعها لأنه في حاجة إلى ثمنها ، ولكن هذه الحاجة في نهاية الأمر لا تبرر له أن يحرم إخوانه من لذتهم إلا إذا أضيف إلى شعوره بالحاجة شعور آخر وهو تفضيل نفسه وايثارها على من عداها بشكل يضر بالجماعة .

والإيثار النفس أمر مشروع في عرفنا فلا نظن أن مغالاة الأخلاقيين في تقبيح هذه الغريزة معقولة إلى حد كبير لا بل نظن أن من المعقول أنه يؤثر الانسان نفسه ويعمل بكل ما أوتي من قوة على رضائها واسعادها ، وان هذا اتجاه طبيعي للحياة لا غبار عليه وإنما ما نأخذ عليه صبيانا وما يجب أن يؤخذ على الأفراد جميعا هو المغالاة في هذا الايثار واغفال الجماعة التي ينتمي إليها الفرد كل الاغفال ، وارضاء شهوات النفس على حساب الغير هذا النوع من الايثار القبيح الذي يعمل على هدم حياة الجماعة وبالتالي يضر بحياة الأفراد فيها .

لا ننكر أن إيثار الجماعة والأفراد الآخرين فيها شيء أعلى مرتبة من هذا الذي ندعو اليه ، وأن التضحية بالنفس وبما يعود على النفس في سبيل الغير تعلو في باب الفضائل على العمل لمجرد خدمة النفس ، ولكن هذه خلة الأبطال وعظماء الرجال والأنبياء وليست خلة الأفراد العاديين الذين ندعو إلى تحسين معايشهم وحياتهم العادية من يوم إلى يوم ، ولا تظن أن من واجب التربية لهذه الطبقة من الشعب أن تخرج لنا أمة من العظماء والأنبياء ، هذا مطلب نظن أن أقل ما يقال فيه أنه مضحك .

وإنما ندعوا إلى أمر آخر فى شأن هؤلاء الصبيان ، وهو أنهم يعملون حساب الجماعة التي يعيشون فيها ويقيمون لرأيها ومعاداتها وزنا عند تقدير الأمور ولا يغفلونها فى نشاطهم وفى عملهم ، وأنه عند ما تتعارض مصلحة الفرد منهم ومصلحة الجماعة ويريد أن يشبع مصلحته الشخصية أنه يشعر فى قرارة نفسه بالتألم من هذا العمل ويحاول أن يخفف الضرر الذي يعود على الجماعة بكل ما وسعته الحيلة وبمعنى آخر يشعر أنه يكلف أيضا بأن يخدم الجماعة وأن هذا التكليف منبعث عن النفس وعن شعور عميق فيها بأن الجماعة اهل لكل خير تستطيع جهوده الفردية ان تجلبه لها .

وهذا بالذات ما نشعر ان الصبي المصرى يغفله كل الاغفال وينكره كل النكران . هو معني بنفسه دون غيرها لا يفكر الا فيها ولا يعمل الا لها بغض النظر عما يحيق بغيره ، ثم هو لا يشعر بالاسف والندم فى قرارة نفسه لهذا الذي يضر الجماعة ، والشعور الذي يتملكه ويملأ كل زوايا نفسه هو ذلك الشعور الذي لا يفتأ يعبر عنه بقوله (وانا مالى) هذا ما يحسه حقا لان نفسه لا تتسع لشعور آخر يتصل بمصلحة الناس أو بمصلحة الافراد اللهم الا عند تفضيل فرد على آخر ، ونظن اننا قد نستطيع ان نرد هذه الحالة النفسية وتلك الاثرة الضارة بحياة الامة الى عوامل كثيرة منها ما يتصل بحالة الصبي الصحية والنفسية ومنها ما يتصل بحياته الاجتماعية فى المنزل وفى الشارع وفى المصنع .

ويخيل الينا انه من غير المستطاع للشعب أن يترك هذه الحالة وشأنها ، لا نملك أن نسكت على هذا الوضع ، فالاخطار فيه واضحة والعلل التى تتجه عنه لا قبل لأمة أن تغفلها من حسابها اذا كانت هذه الأمة تبغى حياة اجتماعية سليمة .

ثم وجدنا ايضا أن هؤلاء الصبيان شديدو التأثر سريعو الانفعال تستثير نفوسهم بعض الحوادث البسيطة على ايسر سبيل ، فالرزانة والاتزان وضبط النفس واستقبال الامور بالبرود أو بعض البرود ومداراة هذه

الانفعالات بحيث لا تظهر اثارها على وجوههم وفى تصرفاتهم ليس من طبعهم في شيء ، فاذا جري أحدهم خوفا من شيء أو فزع من امر فزع منه الباقون وخافوا وأصبحوا اشبه بالغنم نفرت وولت دون أن تدري لما هي تنفر ويذكر الكاتب اننا عثرنا مرة على ثعبان في المكان الذي كنا نلعب فيه فانفرط عقد الصبيان وولوا مذعورين وتفرقوا كأن الثعبان ينوي أن يلحق بكل واحد منهم على حدة ، وبعد ان قتلنا الثعبان ومن الجائز انه لم يكن سامًا اخذ الصبيان يتحدثون به بشكل يدل على أن هذا الحادث ملأ عليهم مشاعرهم ونفوسهم وان هذا الانفعال بالذات لم يترك مجالا لاحساس آخر وكانوا يقصون القصة لكل من حضر من الاولاد او من غيرهم ثم اخذوا يتناقشون فيما بينهم ويلحون في النقاش ، بعضهم يظن أن الحياة في هذا المكان لم تعد تصلح لهم وبعضهم يسفه هذا الرأي ويقاومه ، والداعون والمعارضون جميعا يستمرون في شدة الانفعال النفساني وفي وضوحه .

وهذا الصنف من الناس يخرجون عادة عن طورهم في التصرفات التي تنبعث عن الانفعال فالفرح يطربهم فيخرجون عن وقارهم ، والحزن يفجعهم بحيث لا يبالون كرامة الرجولة التي تتطلب ان لا يستخفنا الطرب فتنصرف دون الوقار اللازم للرجال او نحزن فنبكي وتنهمر دموعنا في ظرف يتطلب منا أن نضبط انفسنا كما يليق بالرجل ، ويذكر الكاتب حادثتين شاهد هما بنفسه ورأى فيهما اثر الأنفعال النفساني الشديد في نوعين من الناس يختلفان كل الأختلاف ، وقد ثارت هذه العوامل في نفسه في الحادثتين على السواء كما ثارت في نفوس من كانوا معه .

حدث انه كان نازلا ضيفا على عائلة في القاهرة وكان الوقت شتاء والناس نياما وإذا ببعض الجيران مهتاجين يصرخون ويطلبون العون من جيرانهم لانهم أحسوا بلص يجوب منزلهم باحثا عن شيء يسرقه ، فذعر الناس كلهم وكنت تسمع الصراخ والأصوات تنادي من كل جانب ، وإذا برجل معنا في المنزل يتملكه الخوف كما تملكنا جميعا وإذا به يتصرف تبعا لهذا الخوف

دون أن يحاول التستر عليه أو مداراته كما نفعل نحن وإذا به يقوم إلى النوافذ يسدها والابواب يضع وراءها العراقيل ، كل هذا ويداه تنتفض من الخوف ولسانه يتلعثم بشكل مضحك وهو يقول « ياساتر استر يارب ياساتر استر يارب » ولا يجد كلاما غير هذا يقوله ولا يفهم عملا يؤديه غير إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وبعد أن هرب اللص دون أن يحدث ضررا بأحد ودون أن يأخذ شيئا معه وعاد إلى الناس هدوؤهم وسكونهم لم يكن صاحبنا يرى فيما فعل شيئا يلام عليه ، لا بل كنا نشعر أنه مستريح النفس والضمير راض عما فعل وعما ظهر من الانفعالات منه ، كأن هذا هو الشيء الطبيعي المعقول الذي لا يملك رجل أن يفعل سواه ، أما ضبط النفس وحجب الانفعالات عن أن تظهر بمثل هذا الشكل ، اما التحكم في الثورات النفسية التي تحدث للفرد فهذا هو الشيء الذي لا يعقل والذي لا ينتظره انسان عاقل .

والحادث الثاني حدث في احدى بلاد الغرب في معسكر للصبيان يضم ما يقرب من الخمسمائة وإذا بعاصفة تثور يصحبها برق ورعد لم ير الكاتب في حياته مثلها من الشدة والقوة . وقد كانت الصواعق تنحدر من السماء ذات اليمين وذات الشمال فتزج الأرض رجا ويدوي قصفها في الآذان دوي القنابل ، وقد خاف الكاتب وأحس بداخل نفسه يضطرب وينفعل شديد الانفعال وإذا بمدير المعسكر يهم واقفا ويقود الأغاني بنفسه ويتخير منها ما يضحك ويسلي ويصحب الغناء بحركات قوية يقصد منها حمل الصبيان على الغناء معه ثم كان يدعوهم إلى الغناء ولا يرضي منهم الا أن يغنوا بالقدر الذي تستطيعه حناجرهم ، واخذنا نغني ما يقرب من الساعة إلى أن مرت العاصفة وهدأت الطبيعة وعادت الامور إلى ما كانت عليه ، كل هذا والأطفال يغنون وهم محتفظون بأمكنتهم ولم يظهر على أحدهم أثر من آثار الأنفعال النفساني والواقع إني موقن بأنهم كانوا خائفين وفي نفس الحالة النفسية التي كان عليها الكاتب ، وانتهى الحادث وذهب كل طفل إلى خيمته ولم نسمع كلمة واحدة

منهم عن هذه العاصفة كأنها لم تكن ، وذلك لأنهم يستنكفون أن يتحدثوا بانفعالاتهم أو يظهروها على وجوههم ، لا بل يزعمون أنه ليس من الكرامة في شيء أن يظهر الأنسان هذه الانفعالات أمام الناس ويطلبهم على ما يجيش بنفسه .

يلاحظ أن الطفل الصغير عندما تضطرب الأنفعالات النفسية في داخله سواء أكانت هذه ناتجة عن الفرح أم الخوف أو الحزن يتكلم بصوت مرتفع وتندفع الكلمات من فمه اندفاعا ويتكلم بسرعة مما يدل السامع على أن نفسه في ثورة داخلية مهما كان السبب فيها ، فاذا ترك الطفل لشأنه ليعبر عما يجيش بنفسه بهذا الوضع دون إرشاد أو توجيه ودون الفات نظره إلى أن ضبط هذه الانفعالات محبوب مرغوب فيه وإلى انه ينتظر من الرجال والاطفال الموزونين ، إذا لم يوجه هذه الوجهة تمادى في الخضوع لانفعالاته أولا ، ثم نشأ على عادة بغيضة وهي التحدث بصوت عال مرتفع يسمعه كل انسان في الترام وفي القطار وفي كل مكان عام يقصده الناس وهذه عادة تظهر فينا كشعب وكأمة فحديثنا ليس لمن معنا من الأصدقاء وانما لكل اذن تستطيع أن تسمع سواء اكانت تحب أن تسمع أو تكره ذلك كل الكره ونظن أن هذه العادة أخذت تقل شيئا فشيئا بين الاوساط المتعلمة ونرجو أن تندثر بمرور الزمن .

اما الاستسلام لما يجيش بالنفس والسماح لهذه الانفعالات بالظهور والتحكم في التصرف فهذه واضحة كل الوضوح في اطفال الشعب ومهما كان سببها وعلتها فانها تجعلهم يتصرفون بشكل لا يليق ولا يحسن به أن يستمر معهم إلى أن يبلغوا طور الرجولة فيدفعهم بطابع لا يحسن أن يكون طابعنا كأمة تريد أن تحافظ على كرامتها بين الامم .

هذا من جهة ومن الجهة الاخرى نظن أن هذا الاستسلام للانفعالات النفسية واطلاق العنان لها دون كبحها والتحكم فيها ، وتركها تقود

تصرفاتنا كما تخلوها من شأنه أن يخرج الأفراد عن طور العقل فى الحزن والفرح وفى الغضب والخوف ، فالبكاء والعويل وهيل التراب على الرؤوس وتمزيق الثياب لنازلة ألمت بالفرد انما هو نوع من فقدان الوعى ، وهو ناتج عن تمكن هذه العادة فى الفرد بحيث يستسلم لها دون حساب ، وهنالك أيضاً الغضب الذي يتملك الفرد فيتصرف بمقتضاه وكلما استسلم له ازداد الغضب تمكناً فى نفسه الى أن يخرج عن وعيه ويفقد توازنه العقلى لحظة قد تكون كافية لأن يعمل فيها عملا ذا أثر مستديم فى حياته وحياة من يلوذون به ، ونظن أن القتل أو اصابة الأفراد بضرر جسمانى بليغ لأتفه الأسباب مرجعه الى تمكن عادة الاستسلام للانفعالات فى الفرد حتى أصبح لا يملك إلا أن يتصرف بمقتضاها .

وعلى كل حال وجدنا أطفال الشعب قابلين للانفعالات الشديدة ويتصرفون بمقتضاها وجدنا أن أعصابهم مرهقة جداً لأرهاق لاتستطيع أن تتحمل قدرا ضئيلا من الضغط عليها وإذا أصابها شىء انفرط عقدها وأرسل زمامها بحالة لاتسمح للفرد أن يتصرف تصرفا معقولا فى حالة الخوف أو الفرح أو الحزن أو الغضب ، وبعد فالناس باعصابهم وماتتحمل والدنيا مليئة بما يهد أعصاب القوى فما بالك بالضعيف ، فيحسن بنا أن نعالج هذه الحالة فى الأطفال أن استطعنا الى ذلك سبيلا ونظن أنه من المستطاع علاجها فيهم .